

الخاتمة

تبين من دراسة الحياة الاجتماعية في الحجاز قبل ظهور الإسلام - القرن السادس - أن هذه الحقبة مرحلة أساسية وهامة في تاريخ العرب وتطورهم الصاعد الأساسية لأنها شكلت بداية الحركة التاريخية عندهم التي تكونت فيها الأصول التاريخية للأشكال التي عبر بها السكان عن تصوراتهم لظواهر الكون والطبيعة وعن علاقاتهم الاجتماعية، وأوضاع حياتهم التي كانت حسيطة للتفاعل بينهم وبين البيئة التي عاشوا فيها.

فقد كان نظام الحياة في ذاك العصر قائما على نظام القبيلة الذي كان ظهورها مرتها بانضمام العشائر بعضها على بعض لأغراض حربية أو اقتصادية وهي اسم خاص لأحد أقسام المجتمع غلب على الأقسام الأخرى، فهناك ما هو أكبر من القبيلة، وهناك ما هو أصغر، وقد استعملت كلمة قبيلة بالمعنى العام الاصطلاحي، وعدت وحدة سياسية واجتماعية قائمة بذاتها لها دينها الخاص، ولها عصبيتها التي تعني التماسك بين أفرادها.

والاعتزاز بالانتماء إليها. والعصبية على هذا النحو هي مصدر القوة السياسية للقبيلة تتضمن نصره الفرد في الجماعة ظالما كان أو مظلوما، فإذا وقع سوء لأحد منهم وفالجميع مسؤول عن مديد العون والمساعدة إليه، بحكم عصبيتهم ولعل لقسوة البيئة أثر في تعميق دور هذه العصبية.

ظهرت قدسية العصبية عندهم فيما عرف بالثأر، وهو مقابلة الدم بالدم، فكان أهل من أراد أن يثأر له يعدون أنفسهم بطقوس معينة، فهم مرضى نفسانيا حتى يدركوا وترهم، ولعلنا وجدنا أن ذلك كثيرا ما يجر إلى وقائع بين الجماعات، ولذا فقد كانت تتوقف بعض الخصومات نتيجة تعويض سمي الدية أعطيت لقريب المقتول

مقدرة بعدد من الإبل حسب المكانة الاجتماعية للقتيل وفي ذلك نوع من التمايز الاجتماعي بين فئات المجتمع لكن يبقى القتل أفضل الحلول لأن الثأر بمثابة القانون الذي حد من فوضى القتل.

في الفترة اللاحقة، وفي الجاهلية القريبة من الإسلام حدثت متغيرات متعددة على كافة الأصعدة، واكتسب الحجاز أهمية خاصة بفضل موقعه المتوسط وبكونه جسرا ربط بلاد الشام، وحوض البحر المتوسط باليمن والحبشة، وشرقي أفريقيا. والبلاد المطلة على المحيط الهندي، فأطل بعد عزلة طويلة على سواحل الخليج العربي والبحر الأحمر، ليصبح منذ القرن السادس مركز الاستقطاب ومحور الحركة التجارية في شبه جزيرة العرب. ولتأخذ مكة على يد القرشيين الدور المميز كمحطة حيوية في تجارة الشرق ولتشهد نموا متزايدا منذ ذلك الحين لأنها استطاعت أن تمسك بزمام الأمور في المنطقة المحيطة بها سواء في تهامة أو نجد فضلا عن الحجاز واليمامة، ولتهيئ الأرض الخصبة لتجذير علاقاتها مع القبائل المختلفة خاصة الدائرة في فلك نفوذها المباشر، وذلك على امتداد خطوط رئيسة أو فرعية تمحورت حولها مصالح دول كبرى. لم تكتف بالضرورة عند حدود المتاجرة بالسلع، لكنها صدرت معها الأفكار والعقائد والنظم ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

أحدث هذا التطور في كسب المعيشة تغيرات انعكاسية في البنية الاجتماعية للمجتمع القبلي الجاهلي، وبين أبرز هذه التغيرات رابطة الدم والنسب، فلم تبق الشرط الوحيد لتكوين الوحدات الاجتماعية، إنما أضيف إليها رابطة الولاء والتحالف والجوار، وكان ذلك انعكاسا للاتجاه العام للأحداث نحو التشكل الكيفي للمجتمع، وتعبيرا عن التوجهات الاجتماعية للعرب نحو التضامن والوحدة، ونمو الشعور القومي، فانحلت الروابط القبلية وتكونت التحالفات على أساس من المصالح الاقتصادية المشتركة والضرورات الدفاعية. وأصبح المال عنصرا هاما في ذاك الوقت فبفضله حصل قصي على زعامة مكة، وسدانة البيت، والوظائف العامة الأخرى التي حصرها بشخصه، وبقوة المال انتزع العباس بن عبد المطلب الرفاة والسقاية من أخيه أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم رغم مكانته العالية في

قريش من الوجهة القبلية، وصنف قصي على أساس الوضع المالي المجتمع القرشي، فمقطع مكة أرباعاً بين قومه، وأنزل كل حي من قريش منازلهم، فأسكن من كانت حالتهم المادية حسنة في بطاح مكة حول الكعبة وهم قريش البطاح، وكان منهم التجار والأثرياء، وأسكن من لم تكن حالتهم المادية حسنة، أولنقل أقل ثراء في ظواهر مكة وهم قريش الظواهر.

إن دل هذا على شيء، فإنه يدل على أن قيمة الفرد الاجتماعية تعلقت بما ملك، وأن التصنيف المالي والتجاري لأبناء القبيلة أصبح يحتل المركز الأول لذلك أصبح بنوعبد مناف، وبنوعبد الدار في مقدمة قريش البطاح، لأنهم صاروا أوفر مالا وأعظم تجارة، ثم احتلت أمية قريش الجاهلية مكان الصدارة، فأصبح فيها أعظم التجار ثراء، وبسطت سلطانها على كثير من قبائل المنطقة العربية الغربية خارج مكة. جاء هذا التطور الاجتماعي، الذي حدث عند استتباب الزعامة لقريش في شخص قصي، وفي أشخاص أولاده وأحفاده من بعده بمثابة قفزة نوعية لتغيرات كمية كانت تجري من قبل في المنطقة مع تنامي العلاقات التفاعلية بين التقسيم الجديد للعمل في كل من الحاضرة والبادية من جهة، وبين اتساع التجارة والوساطة التجارية، وحركة التبادل النقدي في أسواق الجزيرة من جهة ثانية، فعمدت الزعامة المكية اتفاقات وإيلافات تجارية متعددة.

ونظمت الرحلات التجارية الكبرى، والأسواق الموسمية، ورتبت أوقاتها مع الأشهر الحرم حتى يسودها الأمن والهدوء والسلام، واهتم زعماء مكة أيضاً بتنظيم شؤون الحج الذي أسهم إسهاماً كبيراً في تنمية الإنتاج، وتنشيط الحركة التجارية الداخلية والخارجية، وبالتالي ساعد في صهر اللهجات وتوحيدها في لهجة مشتركة متميزة عن غيرها بكونها لغة التعبير الفني والتعامل المشترك بين مختلف القبائل أثناء المواسم التجارية، والدينية والأدبية، وسرع في عملية تفكيك الوثنية ومهد لظهور الإسلام الذي وحد العرب تحت لوائه. ولهذا كله أصبح موسم الحج أكبر تظاهرة اجتماعية عربية ليس في تاريخ الحجاز فحسب، بل وفي تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام فاختلاف القبائل كلها خلال موسم الحج في عملية تتداخل فيها

العلاقات الاقتصادية بالاجتماعية بالأدبية والدينية تداخلا تفاعليا. أنتج مزيدا من الاندفاع نحو ذلك المجرى العام لتشكيل جديد وكانت الأسواق الموسمية المتعددة أثناء أداء موسم الحج هي المظهر الحركي الأكثر فاعلية في سياق هذه العملية المتداخلة، حيث زادت من تقارب العرب وتآلفهم، فارتبطت فئات كثيرة من سكان الحواضر والبادية بالعملية التجارية سواء أكان ذلك بمشاركة بعضهم في تمويل القوافل. أو تشغيل قسم كبير منهم كأدلاء وحراس للقوافل، أو مقدمين للخدمات الضرورية لها في المحطات المنتشرة على طول الطريق البرية، وفي الثغور البحرية، أو متاجرين يتبادلون معها السلع الاستهلاكية، أو منشئون لتجارات صغيرة بين القبائل إضافة إلى رؤساء القبائل الذين كانوا يتقاضون الإتاوات والضرائب والهدايا.

هياً هذا النشاط التجاري ظروفها أفضل لنمو الزراعة والحرفة وزيادة الإنتاجية، وتحسين التكنيك، وتجديد أدوات الإنتاج فأدى ذلك إلى ازدياد ثراء الفئات العليا التي أصبحت تشكل أرستقراطية المجتمع الجاهلي وبالتالي صيرت مكة مركزا ماليا كبيرا لا في الحجاز وحسب، بل وفي الجزيرة العربية بأكملها، وبالتالي أصبحت مكة في مركز المهيمن على عملية تفكيك البنية الاجتماعية للمجتمع القبلي من أسسها، وأسهم الاستثمار الربوي في زيادة الفوارق الاجتماعية في الحجاز، وكان المرابون يتلاعبون بالديون بأن يؤخروا أجالها أو يقدموها، أو يضيفوا إليها إلى غير ذلك من الألاعيب والحيل التي أدت إلى تدهور المستدين وفقدانه ماله وبالتالي حريته.

وبدأت أشكال أولية من التملل والتمرد كالصعاليك والخلعاء والطرء والأرقاء 000 كانت مؤشرا على بدء تحول هذه الفوارق إلى تناقضات فعلية تصبح أساسا لانقسام المجتمع إلى فئات وفقدان العدالة الاجتماعية.

ونج عن سيطرة الأرستقراطية القرشية دار الندوة والملا التي كانت شكل من أشكال التنظيم السياسي متناسب مع مستوى التطور الاقتصادي الاجتماعي الذي وصلت إليه مكة عند استتباب الزعامة لقريش في شخص قصي وليكن لهذا النظام سلطاته، وأجهزته المتناسبة مع وضعه التاريخي، وكانت تتمتع حكومة دار الندوة

أوالملأ، بسلطات متعددة تشريعية وتنفيذية، وقضائية، وإدارية، وتتناول الشؤون العامة والخاصة لسكان مكة وفيها :

تبحث قضايا الحرب والسلام.

تبحث شؤون التجارة والأسواق والحج.

تبحث قضايا اجتماعية بما فيها القضايا الخاصة بسكان مكة مثل عقود الزواج، والمعاملات والبلوغ والختان.

وعلى الرغم من تشاورهم في كل أمر كان ينزل بهم فقد كانت المصلحة الاقتصادية هي الأساس في ذلك لأن إدارة الندوة كانت بيد الشريحة الاجتماعية العليا من قريش، وكمظهر لحصر السلطات في هذه الفئة المختارة حصر الملأ حق دخول الندوة في من بلغ سن الأربعين فذلك امتياز لذوي الثروة جديد.

ونشأت داخل القبيلة فئات متميزة عن بعضها في الثروة والحقوق، وبدأ أصل التفاوت الاقتصادي يولد بالضرورة تمايزا اجتماعيا في الحقوق بين الوجهاء والأغنياء، وبين البسطاء الفقراء كما أسلفنا القول، واستتبع هذا التفاوت في الملكية تفاوتاً في المعيشة وتمايزا اجتماعيا بين أفراد القبيلة الواحدة، أدى إلى انقسام أبنائها الأحرار إلى أغنياء وفقراء، إضافة إلى الانقسام الذي كان قائما بين الأحرار والعبيد، وأصبح بسطاء البدو والموالي والعبيد يعملون في رعي الأغنام لحساب ووجهاء القبائل. وكان السبب الرئيسي للمنازعات والحروب بين القبائل طموح ساداتها إلى امتلاك المزيد من الأنعام، وموارد المياه مستغلين ظاهرة الكرم لدعم سلطتهم، حيث أصبحت سلطة الرئيس في ظروف نشوء الفوارق الاجتماعية بين أبناء القبيلة لا تستمد وجودها وقوتها من الأعراف القبلية المقررة وحدها، بل صارت تستمدها أيضا من قوة المال.

ولكون الدين ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية فقد كانت الوثنية انعكاسا لأوضاعهم الاجتماعية، وشروطها المادية، فاشترك طائفة من القبائل في عبادة إله معين، أو تعبدوا لآلهة بعضها البعض انعكاسا لتوجه العرب نحو التضامن والوحدة.

أضف إلى ذلك أن تعدد الآلهة تعبير عن العلاقات القبلية التعددية الانقسامية في مجتمع الحجاز، ومجتمع الجاهلية العربية ككل، أي أن الوثنية كظاهرة دينية نشأت وتطورت بالارتباط مع حركة التطور التاريخي اجتماعيا، وصلات المجتمع الحضارية مع العالم الخارجي.

ومما يلفت النظر في الوثنية أنه كان لبعضها مقام معظم كهيل، وكان عندهم آلهة ثرية وآلهة أقل ثراء وآلهة بسيطة من حجارة أو من خشب، هذا التفاوت بين الآلهة عكس ذلك التمايز في الثروة والحقوق الاجتماعية في إطار القبيلة الواحدة بين الوجهاء الأغنياء، وبين البسطاء الصعاليك والموالي والأرقاء.

أما المقام العظيم لهبل على غيره من الآلهة، فدلالة على أن مقام الآلهة عكس بالطبع مقام المجتمع الحجازي آنذاك. وجاءت الحنيفية كنزعة دينية توحيدية تعبيرا عن التوجهات الجديدة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية نحو الوحدة، وكان ظهورها ايذانا بالثورة على الوثنية المتداعية، وبداية الإرهاص الفعلي لظهور دعوة الإسلام. إذا شهد القرن السادس الميلادي تغيرات اجتماعية على صعيد القبيلة أما على صعيد الأسرة فكان الرجل كل شيء في الحياة الاجتماعية وإن كان لبعض النساء مكانة. وكان أمرهن بيدهن إلا أن المرأة على العموم كانت تورث كما يورث المال، وكان الذي يرثها أكبر أولاد زوجها، فإن لم يكن له فيها حاجة أخذها أحد إخوته فإن شاء تزوجها وإن شاء عضلها حتى تموت فيرث ميراثها، لذلك لم يقيد الرجل نفسه بعدد الزوجات إما بقصد إعالتهن، أو لغرض سياسي إذا كان رئيسا بين قومه بأن يصهر إلى عدد كبير من القبائل حتى يرتبط معها برابطة المصاهرة. وأما بقصد الإكثار من الذرية والتناسل لأن العقم غير مرغوب فيه، وهذا جعلهم في بعض الأحيان يعضون النظر عن نسب المولود فيلحقونه بهم، وكانوا يتزوجون المرأة وهي حامل، ويتبنون الأولاد ولربما شاع ذلك في أوساط الأغنياء والأثرياء وميسوري الحال، بينما كان ينبغي للفقراء الاكتفاء بزوجة واحدة، وكانوا يدفعون نساءهم إلى بعض الرجال لتتال ولدا، ولم يفرحوا بشيء فرحهم بولادة الذكر، لأنه كان يحمل مع والده أعباء الحياة، وكان فخرهم

بكثرة الذكور، لاسيما إذا كانوا أعلاما في الشهرة والجود والشجاعة. أضف إلى ذلك أنه وجد لديهم أنواع متعددة من الانكحة كنكاح البعولة ونكاح المتعة، والسبي، والمقت، والمخادنة، والاستبضاع، ونكاح صواحب الرايات هذا ظاهرة من ظواهر انحلال الروابط العائلية، وظهور الملكية الخاصة، فليست كل هذه الأنواع من الانكحة تد زواجا بالمعنى المقصود من الزواج، لأنها لاتبني بين الرجل والمرأة روابط عاطفية، بل كان بعضها مما نستطيع أن نعدّه مساوئ اجتماعية تتمتع فيها المرأة بشيء من حرية ممارسة علاقات جنسية مع الآخرين لذلك نسب الأولاد الحاصلون من بعض هذه الأنواع من الزواج إلى أمهاتهم مما يدل على بقاء نظام الأمومة الذي كان معروفاً في السابق، وشيع نظام الأبوة إلا جانبه، وخسارة المرأة لدورها القيادي في الهيئة الاجتماعية فلم تعد بالنسبة له أكثر من أم ورثته الشرعيين للمولودين في ظل الزواج، والمديرة العليا لبيته، والمراقبة لإمائه اللواتي يستطيع أن يتسرى بهن حسبما يظلب له. ولعلنا نستطيع القول: أن زواج البعولة كان أول شكل للعائلة ارتكز على الشروط الاقتصادية، وهي انتصار الملكية الخاصة على الملكية الجماعية والهدف من ذلك سيادة الزوج المطلقة في العائلة، وولادة أولاد لا يمكن أن يكونوا غير أولاده من دمه وصلبه ولابد لهم أن يرثوا ثروته مستقبلا، وهذا يعد تقدما تاريخيا كبيرا في الحياة الاجتماعية آنذاك، اتبعه اعتراف العرب بالزواج من خارج القبيلة وإيثارهم ذلك على الزواج من الأقارب محافظة على سلامة النسل وللتخفيف من المشاكل العائلية التي يمكن أن تنشأ عندما يكون الزواج بين الأقارب، ولكنهم مع ذلك حققوا على المرأة التي تزوجت في غربة عن قبيلتها.

إضافة إلى أنواع الانكحة التي عرفها العرب في مجتمع الحجاز فقد كان الزنا عندهم على قسمين سر وعلانية، عام وخاص، فالخاص هو أن يكون للمرأة خدن يزني بها سرا، فلا تبذل نفسها لكل واحد، وقد عدوا ذلك نكاحاً، وأما العلاني فهو المراد به السفاح، أو ماسمي بنكاح صواحب الرايات، فكانوا يحرمون ما ظهر من الزنا، ويستحلون ما خفي منه، وأبيح لهم البغاء الديني المقدس، وكانت بعض النساء تمارسنه تقريبا للآلهة وارضاء لها. أما بالنسبة للطلاق، فكان سهلاً يسيراً،

وعلى أنواع أيضا كالطلاق ثلاثا على التفرقة أو كالظهار أو الخلع أو الإيلاء، وكان بيد الرجل يوقع به متى شاء من غير سبب موجب لذلك، وإذا كان للمرأة في بعض الأحيان الحق في ذلك بسبب كونها ذات مال كثير أو جمال رائع، أو شرف فإن ذلك لا يحميها من تطليق زوجها إياها متى شاء هو.

ولشدة غيرة العربي على البنت حرمها حق الحياة مدعيا الفقر والملاق والجوع أو التقرب من الآلهة وبالمقابل وجد من أحيائها وسمي بمحيي الموءدات، وهو صمصعة بن ناحية جد الفرزدق، ولم يقتصر ذلك على الإناث. بل نذر البعض ذبح الولد العاشر كما فعل عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم، فقد نذر أنه متى رزق عشرة أولاد ذكور ورآهم رجالا أن ينحر أحدهم لله عند الكعبة وقلما استكمل أولاده العددهم بإنجاز ما وعد، وكان الذبح نصيب عبد الله فحماته أخواله بنو مخزوم، وأشاروا على عبد المطلب بالالتجاء إلى كاهنة بني سعد، فحكمت بالدية، وكانت مائة بغير فداء لعبد الله. ومع كراهية العرب للإناث وجدنا أن المرأة قد لعبت دورا هاما في الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي، في السلم وفي الحرب وحظيت بمكانة كبيرة في مجتمع الحجاز وكانت موضع تقدير واحترام الرجل وإعازته ورعايته وكان الزوج كل شيء في حياة الزوجة، ترعاه وتخاف عليه من القتل، وإذا قتل ناحت عليه وحزنت أكثر من حزنها على أقرب الناس إليها وكانت في أيام السلم تقضي وقتها بين مساعدة زوجها في الزراعة إذا كانت تعيش في مناطق زراعية، أو في الطهي وإعداد الطعام وحلب الأغنام، أو غزل الصوف ونسجها، وكثيرا ما كانت تحترف بعض الأعمال التي تكتسب من ورائها مالا تعتمد عليه في حياتها كالتيجارة أو الرضاع أو الغناء أو تقويم الرماح أو دبغ الجلود وكانت في أيام الحرب تصحب زوجها في الغزوات تشجيعه على القتال. واستثارة نخوته، أو مداواة للجرحى وكانت تسقي المقاتلين وفي بعض الأحيان كانت تشترك في القتال. والجدير بالذكر أنه على الرغم من شيوع فكرة حرمان المرأة من الإرث فقد عثرنا على نصوص استتبطننا منها أن المرأة كانت ترث أحيانا، واهتدينا إلى نص فريد قد ثبت أنها ورثت نصف الذكر وربما لم تكن الوحيدة في ذلك الأمر في المجتمع العربي.